المحاضرة الثالثة

**ثانياً: مظاهر التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأسلامي وحواضر السودان الغربي:**

**1 - على المستوى العلمي:**

شكّل التلاقح العلميّ أحد أبرز ميادين التفاعل الحضاري بين المدن السودانية ومدن المغرب الأوسط.

ونسجل هنا حضور علماء هذه المراكز العلمية، وكان لبعضهم أثرٌ بيّنٌ في الحياة العلمية بالسودان.

لقد كانت الحواضر السودانية، مثل تنبكت، ترتبط ثقافيّاً بمختلف حواضر العلم والثقافة في الشمال الإفريقي، ومن ضمنها بعض حواضر المغرب الأوسط كتلمسان وإذا كانت تلمسان لم تزل «داراً للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس...» ؛ فإنّ ابن بطوطة ذكر بأنّ أحد أبناء ابن شيخ اللبن التاجر التلمساني «من الطلبة؛ يعلّم القرآن بمالي» مما يُبرز بشكلٍ جليٍّ أحد أوجه الإشعاع العلميّ لتلمسان بأرض السودان.

ويبقى المغيليّ من بين علماء المغرب الأوسط الأشدّ تأثيراً في المنطقة، أخذ عنه بتكدة كلٌّ من: العاقب بن عبد الله ومحمد بن أحمد التازختي , واعتُمدت بعض كتبه لدى فقهاء السودان، مثل أرجوزته في المنطق

كما كان بتنبكت عددٌ من علماء المغرب الأوسط، مثل أبي القاسم التواتي الذي تولّى الإمامة بمسجد تومبوكتو وأشرف على محضر يقرأ فيه الأطفال كما كان «معيار» الونشريسيّ معتمداً فيما يُقرأ ويُدرّس بتنبكت والسودان إلى جانب بعض مؤلفات المقري

وقد بلغ من نضج علماء أهل السودان أنّ علماء تلمسان كانوا «يشاورونهم في المسائل العلمية والقضائية»

لا شك إذاً في أنّ مظاهر التأثير والتأثّر العلمي، الأخذ والعطاء، متعدّدة بين علماء الحواضر السودانية ونظيرتها بالمغرب الأوسط، يتعذر استقصاؤها، وقد اكتفينا بما جادت به بعض المصادر في هذا الشأن.

**2 - على المستوى المذهبي:**

كلّ التطورات الدينية والمذهبية في شمال إفريقيا كانت تجد صداها في السودان، فمثلاً سيطرت الدولة الرستمية ذات المذهب الخارجيّ الإباضيّ إبّان قيامها على معظم المنافذ المؤدية إلى السودان، كورقلة وغدامس ففي عصر الإدريسي  (ت 559هـ) كان أهل ورقلة ما يزالون يحتفظون بمذهبهم الإباضي , وكانوا على صلةٍ دائمةٍ بأرض السودان «لبيع تمور سجلماسة والزاب، و  (يُخرجون منها التبر، ويضربونه باسم بلدهم)»

وإذا أضفنا لها أهل «تاهرت»، وغيرهم من أهل «جبل نفوسة»، نفهم لِمَ وجد ابن بطوطة  (ت 779هـ)، سكان مدينة زاغري، التي تلي ولاتة في اتجاه مالي عاصمة سلطنة مالي، منقسمين إلى طائفتَيْن من البيضان: الأولى تُدعى: «صغنغو»، وهم خوارج إباضية، والثانية تُدعى: «توري»، وهم سنّة مالكية ويبقى أبرز تأثيرٍ هو: انتقال المذهب المالكي، بعد رسوخه بالمغرب الإسلامي، إلى ربوع السودان بفضل الفقهاء المغاربة، ومن ضمنهم مالكية المغرب الأوسط، وأشهرهم المغيلي.

**3 - على المستوى الروحي:**

بعد انتشار الطرق الصوفية بكلّ أرجاء المغرب الإسلامي؛ بدأت الصوفية تتسرب إلى أصقاع السودان؛ حيث وصلت «الطريقة القادرية» هناك عبر «توات» منذ القرن 15م , أو مطلع القرن 16م

ويعد محمد بن عبد الكريم المغيليّ أول مَن أدخلها إلى بعض أجزاء الصحراء الكبرى والسودان الأوسط وشمال نيجيريا (الهاوسا).

بينما ساهم سيدي أحمد البكاء الكنتي، خلال القرن 15م، في نشر مبادئها في الجزء الغربيّ من الصحراء الكبرى ثم اتسع انتشار القادرية على يد الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي «الذي عاش في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ما بين ولاتة وتمبوكتو وتوات» ثم الشيخ التأرازي الذي أدخلها إلى ما يُعرف حاليّاً باسم: غامبيا وليبيريا وغانا وغينيا بيساو وبعده عثمان دان فوديو

ومن أبرز مدارس التصوّف التي نشأت بالمغرب الأوسط، وكان لها حضورٌ كبيرٌ وانتشارٌ واسعٌ بغرب إفريقيا ووسطها: الطريقة التيجانية التي أصبح لها حضورٌ كبيرٌ خلال القرن 19م , وعُرفت بميولها العسكرية وكان لها دورٌ مهمٌّ في مواجهة التغلغل الاستعماري الأوروبي، وأبرز نموذج لذلك: «المجاهد التيجاني الحاج عمر الفوتي التكروري الذي توفي عام 1864م».

ومن ثمّ ارتبط انتشار الإسلام واعتناقه في غرب إفريقيا في القرون المتأخرة بالطريقتَيْن «القادرية» و «التيجانية»، وأضحى «كلّ مسلمٍ يتّبع واحدة من الطريقتَيْن» ومن غير العادي أن «يكون مسلماً غير منتسبٍ لإحدى الطرق الصوفية الكبرى»

كما كان للزاوية السنوسية، هي الأخرى، نصيبٌ واضحٌ في الانتشار، ونشر الإسلام بالسودان، منذ أن أسّسها الشيخ سيدي محمد بن علي السنوسي سنة 1837م والذي ينحدر من مدينة مستغانم بالجزائر .